من مؤسسات الرعاية الاجتماعية في القدس المملوكية

رباط النساء في القدس

للأمير تنكز الناصري نائب السلطان بالشام

د. يوسف النتشة

دور الأوقاف الخيريّة الإسلامية في الرّعاية الاجتماعيّة

تتفاخر الدّول الحديثة، خاصّة المتقدمة منها، بمستوى وتنوّع ما تقدّمه من الخدمات الإنسانيّة لمواطنيها، عبر سلسلة من المؤسّسات الاجتماعيّة كدور إيواء المسنّين، ودور الأيتام، ومراكز أصحاب الاحتياجات الخاصة، والنّوادي الاجتماعية وغيرها من المرافق كالحدائق والمشافي ومراكز النّقاهة والتّأهيل. وهذه المؤسّسات الخدماتيّة، تشكّل معياراً ومقياساً لمستوى رفاهيّة المجتمع وتقدّمه ومؤشراً لمستوى الرّقي الفكريّ المترجم إلى سلوك حياتي يحقق سعادة أفراد المجتمع كما تعكسه معتقداته وقيمه وأفكاره.

وفي المجتمع الإسلامي تنوعت الأعمال الخيرية الوقفية وتوسعت؛ بفضل ما حثّت عليه الشّريعة وما مارسه أفراد المجتمع من مشاريع عمرانيّة وقفيّة هادفة، تميّزت بتحقيق مبدأ أساسي لنجاح المشاريع، بأن ضمن نظام الوقف وشروطه الاستدامة والاستقلاليّة، لأن أبرز مظاهر القوة، لأي مشروع أو ظاهرة إنسانية هي الاستمرارية، تحقيقاً لقول المصطفى صلّى الله عليه وسلّم: «قليل دائم خير من كثير منقطع». وعليه فقد انتشر في المجتمع الإسلامي في فتراته المختلفة، خاصّة فترة الرّخاء والعطاء والبذل، مجموعة كبيرة من

المؤسّسات الاجتماعيّة الرّائدة، كالمدارس والزّوايا الصّوفية والبيمارستانات «المشافي» والأسبلة والمكاتب والأربطة. وسيقف الكاتب في هذه السّطور المقتضبة على الرّبط أو الأربطة كمدخل لعنوان البحث أعلاه.

تطور الأربطة من المثاغرة إلى المجاورة[1]:

ورد في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وفي قواميس اللغة المتخصصة معانٍ متعددة للفظة رَبط ورباط، والتي تجمع على رُبط وأربطة ورباطات[2]. وما يهمّ هنا، هو المعنى الذي ارتبط به نوع من المباني في العمارة الإسلامية بمدارسها المتعددة. وبهذا المعنى يكون الرباط كمبنى يشير إلى الحصن أو الثغر أو موقع للحدود، تتمركز فيه مجموعة من المتفرغين للدفاع عنه وما تفرع عنه وتطور من وظائف ومصطلحات معماريّة. فبداية كانت الرُبط عبارة عن موقع أو بناية عسكرية تقام على الحدود تحمل الصفة الدفاعية والتّعبدية في التّفرّغ للدّفاع والعبادة، حسب متطلبات كل منهما، وذلك مثل رباط سوسة ورباط المنستير في شمال إفريقيا، وهذا النوع من الربط لم تعرفه القدس، لكن عرفته فلسطين نصّاً لا عمارة.

فقد أورد المقدسي[3] في كتابه «أحسن التقاسيم» ما يفيد وجود سلسلة من الأربطة أو مواقع الثغور على سواحل فلسطين، ولا غرو في ذلك، كون فلسطين حازت على موقع حسّاس يشرف على البحر ويتّصل بحضارات ودول في البحر الأبيض المتوسط، كانت العلاقات بينها ليست دائماً ودّية، مما استلزم اليقظة والمرابطة. وخصّ المقدسي[4] هذه الرباطات بوظائف محددة، جعلها في فداء الأسرى والإعلام بموعد الفداء عن طريق إيقاد النار أو ضرب الطبل. ومهما يكن من الأمر، فلمّا يصلنا من هذه الأربطة –على حد علم كاتب هذه السطور– على كثرتها أي مبنى معماري منها، ولذا تمت الإشارة إلى أن فلسطين عرفتها نصّاً لا عمارة.

---

(1) تعني المسلم الذي يرتحل من بلده ليقيم بأحد الأماكن المقدسة، خاصة القدس والمدينة ومكة بقصد العبادة والتعلم أو التدريس (النتشة 2020، 204).

(2) https: / /www.almaany.com /ar /dict /ar–ar /
وانظر أيضاً: أمين محمد وابراهيم ليلي 1990، 52؛ رزق 2000، 116.

(3) 1877، 177.

(4) 1877، 177.

ثم لاحقاً فقدت الأربطة صفتها الحربية الدفاعية والتعبدية، وانتقلت من الحدود والثغور إلى داخل المدن، وأصبحت فقط مقرات للعبادة من قبل الصّوفية والزّهاد، ممّن سلك مسالك مجاهدة النّفس. وهنا تقاطعت وتداخلت مهمّة الأربطة مع الزوايا الصّوفية والخوانق. وهذا النّوع من الأربطة لم يشع في عمارة القدس تحت مسمى رباط، وإن شاع وجود الكثير من الزوايا والخوانق الصّوفية[1]. والمرحلة الثّالثة في تطوّر وظيفة الرّبط، خاصة بعد أن ضعفت الهمم وأصبح الاهتمام بالشكل دون الجوهر فيما يتعلق بالتصوف والمجاهدة، وانتشار فكرة المجاور فأصبحت الرّبط والأربطة أماكن لإقامة الفقراء والغرباء والمجاورين والزوار. واشتهر هذا النوع من العمارة في مدينة القدس، خاصّة لزوّار المدينة باعتبارها مدينة دينيّة لها مكانة رفيعة في العقيدة الإسلاميّة. فأنشئت فيها الأربطة للزيارة والمجاورة والانقطاع للعبادة. ومن هذه الأربطة نذكر: رباط الأمير علاء الدين البصير (666هـ/ 1267م)، ورباط السّلطان المنصور قلاوون (681هـ/ 1281م)، ورباط كرد المنصوريّ (693هـ/ 1291م)، والرّباط المارديني (763هـ/ 1361م)، ورباط الأمير محمد بن الزمن (881هـ/ 1477م)، وهذه كلّها من الفترة المملوكيّة، ومن الفترة العثمانيّة، يوجد رباط أسّسه بايرام جاويش في سنة (947هـ/ 1540م). وكان في المجتمع الإسلامي رُبط خصصت للأرامل والعجائز والمطلقات والمهجورات من النساء، والرباط موضوع البحث هو أحد أربطة النساء في القدس.

رباط النساء في القدس للأمير تنكز الناصري

تاريخ الرباط: أوقف هذا الرّباط عام (730هـ/ 1330م) الأمير المملوكي سيف الدين أبي سعيد تنكز بن عبد الله النّاصريّ[2]؛ نائب السلطنة (المملوكية) في الشّام.

الاسم: عرف باسم وحيد هو رباط النّساء أو رباط الأمير تنكز للنساء.

الموقع: يقع رباط النساء مقابل المدرسة التنكزيّة؛ بالقرب من باب السلسلة -أحد أبواب

(1) من خوانق القدس: الخانقاه الصلاحية، والخانقاه الجوهرية، والخانقاه الدوادارية والخانقاه الفخرية والخانقاه المولوية، ومن زوايا القدس: زاوية أبو مدين، والزاوية البسطامية، والزاوية الجراحية، والزاوية الختنية، وزاوية الشيخ يعقوب العجمي والزاوية القادرية، والزاوية اللؤلؤية والزاوية المحمدية والزاوية النقشبندية وزاوية الهنود، والزاوية الوفائية.

(2) ت 741هـ/ 1340م.

المسجد الأقصى المبارك-، خارج السور، على يسار الداخل إلى المسجد الأقصى المبارك من هذا الباب.

حـدود الربـاط والبيئة المحيطة به: يصف الجعبة[1] موقع رباط النسـاء، إلى جانب غيره من المبـاني والعقـارات المجاورة لـه بالقول: «وحـين يقف الزائـر في الرحبة المربعـة الصغيرة الواقعـة أمام باب السلسـلة (باب الحرم)، يشـاهد مجموعة من المبـاني المحيطة: على الجهة الشّـمالية رباط النّسـاء الذي بناه تنكز الناصري كجزء من مشروعاته المتكاملة في القدس، وعلى الجهة الغربيّة سـبيل باب السّلسلة الّذي بناه السـلطان سليمان القانوني، وعلى الجهة الشرقية باب السّلسـلة وباب السّـكينة اللذان يقودان إلى المسـجد الأقـصى ويعتبران أكبر وأجمل بوابات المسجد التي ما زالت مستخدمة، وعلى الجهة الجنوبية المدرسة التنكزية، ممّا يحول هذه الساحة الصغيرة إلى مجمع من المباني التاريخيّة».

وظيفـة الربـاط الأصلية والحالية: بُني الربـاط في الأصل ليكون مقرّاً ومـلاذاً لمن تقطعت بهم السـبل من النّسـاء العجائز والمطلّقات. ولا يعرف على وجه الدّقة متى توقف الرباط عن هذه المهمة الإنسانية الجليلة، لكن يفترض أن ذلك قد يكون تم في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حينما تبدلت أساليب الحياة من الطرق التقليدية القديمة إلى بعـض الحداثـة. وعرف في الربع الأخير مـن القرن العشرين الماضي أن أجـزاء من الرّباط كانـت حانوتـاً ومقرّاً لأسـتوديو للتّصويـر الفوتوغرافي، شـغله بعض الأفـراد من عائلة رصاص المقدسيّة.

حاليّـاً، يقوم الرّباط بوظيفة ومهمة تشـبه مهمته الأصليـة من حيث المبدأ؛ أي الإيواء، إلا أنـه ليـس للعجائز بل للزوار والسـوّاح، ممن يرغبون في نزل شـعبي يكـون قريباً جدّاً من المسـجد الأقصى وفي قلب البلدة القديمة لمدينة القدس. ويحمل هذا النزل اسـم هوسـتل باب السلسلة (Chain Gate Hostel)، ويدير هذا النزل أحد الأفراد من عائلة التوتنجي وبترتيب قانوني؛ أي بعقد صادر من قبل دائرة الأوقاف الإسلامية المالكة لهذا العقار.

نسبة الرباط المملوكية: لم ينل رباط النساء لتنكز الناصري اهتمام العديد من مؤرّخي العمارة

(1) الجعبة 2018، ص 420.

في القدس كغيره من العمائر المملوكية بوجه عام أو كبقية عمائر الأمير تنكز بوجه خاص[1]، ويبدو ذلك نظراً لعدم احتواء النسيج المعماري للرباط على نقش كتابي، وكون النسيج بسيطاً متقشفاً على النقيض من بعض المباني الباذخة المزخرفة التي قد تلفت النظر إليها، ويمكن أن يُعزى هذا أيضاً إلى عدم ذكر الرّباط من قبل مؤرخ القدس مجير الدين، وإلى تأخّر نشر وتداول المعلومات الواردة في وقفية الأمير تنكز التي تعتبر المصدر الأساسي لمعلوماتنا عن عمائر تنكز، والتي منها الرباط، حيث حدّد فيها وإن كان باقتضاب موقع وشروط ومواصفات المقيمين فيه من النساء. هذا وتأكّدت نسبة الرباط ثانية بواسطة دفتر تسجيل الطابو العثماني رقم 522[2].

التاريخ اللاحق: قام بورغوين[3] بدراسة الرباط دراسة معماريّة مستفيضة كأحد مباني الأمير تنكز الناصري، ولاحقاً أورد له بيبرشتاين وبلدهورن[4] قائمة مراجع متواضعة، وكان أحد الأربطة السبعة التي وردت في مقال الزميل بكيرات[5] عن أربطة القدس.

الأوقاف على الرّباط: ما خصص من نفقات سخية على الرّباط، لشيخة الرباط والقيّمة البوابة، والمقيمات فيه والزائرات الأفاقية[6] ولمدة عشر ليال، من مصاريف شهرية وخبز يومي، كما يظهر أدناه، شرط الواقف أن تكون من ضمن مداخيل الأوقاف التي خصصها للصرف على مدرسته وعلى المسجد الأقصى المبارك، وهذا يجعل نفقات الرّباط من ضمن

(1) من الجدير بالملاحظة أن الرباط لم يذكر في مؤلف كامل العسلي (1982 معاهد العلم) ولا في (مفصل عارف العارف 1961).

(2) ابشرلي والتميمي 1982، 38، 178، رقم 49.

(3) Burgoyne 1987, 240243–, no. 19

(4) Bieberstein and Bloedhorn 1994, 2, 214

(5) 2018، 122–124.

(6) نسبة إلى الأفاق وتعنى عدم الاستقرار والانتقال من مكان إلى آخر أو بمصطلح اليوم على سفر أو مسافر، وهذا أطلق على الصوفية أو الفقراء المتنقلين من مكان إلى آخر ضمن الزوايا الصوفية الخاصة بالطريقة التي يتبعونها.

ما يجبى من ريع الأوقاف من الحمّامات الثلاثة (حمام الشفا، وحمام العين، ومستحم درح العين)، والخان وسوق القطانين، وما أوقف من أماكن أخرى مثل ضيعة عين قينيا وغيرها من الأماكن التي حددت في الوقفية[1].

وقد ورد ذكر «رباط النساء» في وقفية الأمير تنكز في موضعيْن: **الأول**، عرف كأحد العقارات التي أوقفها الأمير تنكز، وتوصف تركيبته العمرانية بما نصه[2]: «... **ومنه جميع الرباط بالقرب من المدرسة المذكورة المعد لإقامة النسا (النساء) الاتي (الآتي) ذكرهن فيه**». و**الثاني**، يحدد ما يُصرف على هذا الرباط بما يكفي حاجة المقيمات فيه، إذ ورد[3]: «... **ويصرف ناظر الوقف على شيخة رباط النساء في كل شهر من الشهور عشرين دراهم فضة، وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز، وإلى القيّمة البوابة بالرباط المذكور في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة، وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز، وإلى كل واحدة من الفقيرات العجايز الشعرة في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف دراهم، وفي كل يوم من الأيام ثلث رطل من الخبز، وإلى كل واحدة من الفقيرات الواردات إلى الرباط المذكور مدة عشرة أيام من حين ورودها في كل يوم ربع درهم فضة، وثلث رطل من الخبز، ويقتصر في ذلك على عشر من الواردات إلى الرباط من غير زيادة أو عددهن ويقدم الواردات الفقيرات الغريبات على الفقيرات من أهل القدس، وكذلك في النساء المرتبات في الرباط المذكور..**»

لمحة عن سيرة المؤسس الأمير تنكز:

ليس هذا المقام لذكر سيرة ذاتية تليق بمكانة وأعمال تنكز في العصر المملوكي أو في القدس، فقد ترجم له الصفدي[4] مفصلًا، وباعتباره شاهد عيان لكثير من الأحداث

(1) العسلي (1983). ص: 106-107.

(2) العسلي (1983). ص: 111.

(3) العسلي (1983). ص: 118.

(4) 2000، ج 10، 260-268.

كونـه كان كاتـب ديوانـه. وعليه يُكتفـى هنا بالإشـارة إلى أنه كما يظهـر في الحوليّات التاريخية الخاصة بالعصر المملوكيّ[1]، فإن للأمير تنكز سيرة ذاتية حافلة بالإنجازات، ولتقديـر سـيرة تنكز، على المرء أن يتخيّل كيف أن عبـداً رقيقاً بيع وتنقل ضمن ملكيّة عدة أمراء وسـلاطين شـقّ حياته بجدّ واجتهاد وتنقّل بين المناصب المتعدّدة في الدّولة المملوكيّـة حتّـى وصـل إلى نائب سـلطان، إليه يجب أن يكتـب بقية أمراء الشّـام قبل مخاطبتهـم السّـلطان. ولقـد قام تنكز بعدّة بمشـاريع عمرانيّة في عدّة أماكن في الشّـام وفلسـطين[2]، واشـتهر بحزمه وأعمالـه العمرانيّة ذات الأبعاد الإنسـانيّة والثّقافيّة، له مآثر عمرانيّة كثيرة في القدس، منها: سـوق القطّانين، المدرسـة التنكزيّة، وتعمير قناة السـبيل التي كانت تـأتي بالماء من عين العرّوب وبرك سـليمان (728هـ/ 1328م)[3]. وأسـس رباطاً للنسـاء موضوع البحث، إضافة إلى حمّامين أيضاً في طريق الواد، وهذه كلّها على سبيل المثال لا الحصر[4].

لمحة موجزة عن مكونات الرباط المعمارية:

للربـاط واجهـة معمارية واحدة رئيسـة (لوحـة 1) تطلّ جنوباً على سـاحة باب السّلسـلة والواجهـة تقابـل مدخل المدرسـة التنكزيّة، ويشـغل الواجهـة مدخل الرّبـاط الذي فتح داخـل حنية متراجعة تنتهـي بعقد ثلاثيّ الفصـوص، ويعلو الواجهـة ويحيط بها مجموعة من الشّـبابيك، بعضها فتحـت في طابق علويّ أضيف إلى مبنى الرّبـاط في العهد العثمانيّ. والبـاب الـذي يوصـل إلى داخل الربـاط يعلوه عتـب حجريّ مكـون من كتلـة واحدة. والواقع أن الواجهة متشـقّقة كما سـبق القول، وتعرّضت إلى تشويهات معمارية حديثة من وضع أجهزة التّكييف والتمديدات الصحيّة بعشوائيّة.

(1) انظر على سبيل المثال المقريزي 1987، ج2، 54.

(2) النتشة 2020، 122–123.

(3) العسلي1983، ج1، ص: 105؛ مجير الدين (1973). ج2. ص: 35.

(4) عن هذه العمائر راجع:

Burgoyne 1987, 233239–, no. 18; 273298–; no.24.

لوحة 1 الواجهة الجنوبية لرباط النساء

إن التّخطيـط الدّاخلي العام للرّبـاط لا يتبع أي مخطط تقليدي يخص الأربطة أو غيرها من المباني المتشـابهة مع الأربطة كالزوايا أو الخوانق. لأنّ الدّاخل يتكون من قسـمين: **الأوّل**، شماليّ يتقدّمه ممرّ أو دهليز مستطيل المسقط، يقوم على جهته الشمالية ست خلاوي صغيرة مختلفة الأحجام والأشـكال وأسـلوب تغطية الأسـقف، فبعضها له قبـو برميليّ والبعض الآخـر لـه قبو متقاطـع، وفتح في ثلاثة خلاوي نافـذة تطلّ على الممرّ، وتسـاعد في إدخال الضـوء والهواء إلى داخل الخلاوي. و**القسـم الثاني**، غربيّ يتكون مـن ثلاث قاعات كبيرة نسبيّاً مقارنة مع الخلاوي الصغيرة سابقة الذكر، والقاعة الوسطى فيها فتحة سقف تُدخِل النّـور والهـواء إلى الداخل، وإلى شـمالها وجنوبها تقوم القاعتان الشـمالية والجنوبية. وعليه فإنـه اعتـماداً على هذا التخطيط، فإنه يفهم أن الخـلاوي الصغيرة كانت للإقامة المفردة، في حين أن القاعات كانت للإقامة المشـتركة بين النزيلات، وبهذا فإن الخصوصية التي تنشـد اليوم في الحياة الاجتماعية لم تكن متاحة لكلّ نزيلات الرباط.

وعلى صغر حجم هذا الرباط وبساطته المعماريّة وخلوّه من الزخارف والعناصر المعمارية، مقارنـة بالربـاط المنصوري في القدس أو غيره من الأربطة، فإن تخصيصه للنسـاء العجائز

والمعوزات ينمّ عن وجود مشـكلة اجتماعية في مجتمع القدس المملوكيّ، وإنّ هذه المشكلة قد تمّ التصدي لها بمسـؤولية بواسـطة الأوقاف وأعمال الخير، وقد تمت معالجتها بطريقة تكفـل الكرامـة والاحـترام لفئـة مهمّـة في المجتمع. ولا شـك في أن التّكافـل الاجتماعي الأسريّ كان في ذلك الوقت قوّياً، ومتماسـكاً لدرجة جعلت الحاجة إلى مثل هذه الأربطة تقتـصر في الأغلـب عـلى من ليس لهم أسرة أو أهـل، وهم بهذا كانوا بحاجـة إلى مثل هذه المؤسّسة العامة لتحميهم وتكفل لهم العيش الكريم.

قائمة المراجع

- **إبشرلي والتميمي 1982** إبشرلي، محمد والتميمي، محمد. أوقاف المسلمين في فلسطين، استانبول.

- **أبـو زيـد 2015** أبو زيد، أحمـد. «دور الأوقاف في مجال الرعاية الاجتماعية. في «موقع قصة الإسـلام»، وفق الرابط الآتي (شوهد في 24/ 03/ 2020): https: / /islamstory.com /ar /artical /23919

- **أمـين وإبراهيـم 1990** أمين محمد محمد، وإبراهيم، ليلى علي، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (648–923/ 1250–1517)، الجامعة الأميركية بالقاهرة.

- **بكـيرات 2018** بكـيرات، ناجـح. «أربطـة القدس وأوقافها بـين الماضي والحـاضر»، في «وقائع المؤتمر الأكاديميّ الرابع (الوقف الإسلامي في القدس). تحرير: عزيز العصا وآخرون. الهيئة الإسلاميّة العليا– القدس. ص: 103–138».

- **الجعبـة 2018** الجعبـة، نظمـي. «دور الوثائـق الوقفيّـة في اسـتجلاء التّركيبة الحضريّـة والمعماريّة لمدينة القـدس المدرسـة الّتنكزيّة كحالة». في «وقائـع المؤتمر الأكاديميّ الرابع (الوقف الإسـلامي في القدس). تحرير: عزيز العصا وآخرون. الهيئة الإسلاميّة العليا– القدس. ص: 392–430».

- **رزق 2000** رزق، عاصـم محمـد. معجـم مصطلحـات العـمارة والفنـون الإسـلامية، مكتبـة مدبولي، القاهرة.

- **الصفدي 2000**: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت 764هـ)، كتاب الوافي بالوفيات، ج 10، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- **العارف 1961** العارف، عارف. المفصل في تاريخ القدس، مكتبة الأندلس، القدس.

- **العسلي 1983** العسلي، كامل جميل. وثائق مقدسيّة تاريخيّة. المجلّد 1. عمّان. الأردن.

- **العسلي 1982** العسلي، كامل جميل. معاهد العلم في بيت المقدس، عمان.

- **الحنبـلي 1973** الحنبلي، مجير الدين عبـد الرحمن بن محمد. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، جزءان.

- **المقـدسي 1877** المقـدسي، شـمس الديـن محمد بـن أحمد بـن أبي بكر البناء الشـامي المقـدسي المعروف بالبشاري. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن.

- **المقريزي 1997** المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ). السـلوك لمعرفة دول الملوك، الأجزاء: 3–5، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

- **النتشة 2020** النتشة، يوسف سعيد. تراث القدس المعماري، دراسة في تطوره وطرزه وأعلامه وعناصره المعمارية والزّخرفية، مؤسسة التعاون، القدس.

- **نجم وآخرون 1983** نجم، رائف؛ عبد المهدي، عبد الجليل؛ النتشة، يوسف؛ حلاق، بسام؛ كلبونة، عبدالله، كنوز القدس، منظمة المدن العربية.

- **Biebersteinn1994** Biebersteinn, K. and Bloedhorn, H., Jerusalem, Grundzuge der Baugeschichte vom Chalkolkithkum bis zur Fruhzeit der osmanischen Herrrschaft.3 Band, Wiesbaden.

- **Burgoyne 1987** Burgoyne, M. H., Mamluk Jerusalem: an Architectural Study, Buckhurst Hill, 1987.

- **Natsheh 2000, II** Natsheh Y. S., «Architectural Survey: Catalogue of Buildings", in Ottoman Jerusalem, The Living City 15171917-, edited by Sylvia Auld and Robert Hillenbrand, part II, pp. 657 -1085.

https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/